

جمالية اشتغال الصورة السردية في رواية "الخضر" لياسمينه صالح

**Aesthetic working narrative image in the novel entitled «Lakhdar» written
by the novelist Yasmina Saleh**

1 أ.د./ باية غيبوب *

جامعة حسيبة بن بوعلي-الشلف، (الجزائر) baya02ghiboub@gmail.com

2 د/أمنة عشاب

جامعة حسيبة بن بوعلي-الشلف، (الجزائر) a.achiba@univ-chlef.dz

تاريخ الارسال 2024-10-05 تاريخ القبول 2024-12-01 تاريخ النشر 2024-12-31

ملخص:

تشغل هذه الدراسة في رواية "الخضر" لياسمينه صالح على صورة البطل "الخضر" بصفته الشخصية الرئيسة، متخذة من تيمة الهوية وما لحقها نتيجة الصراع من تشظي الذات واغترابها داخل الوطن وتراجع البعد الإنساني في زمن ضاع فيه القصد وتقاطعت سبل المتاهات، زمن أضحى فيه هم الفرد هو تحقيق المصلحة الخاصة مهما كلفه ذلك. وبهذه الرؤية السردية جاءت رواية "الخضر" صورة معدلة فنيا للواقع الجزائري في سنوات العشرية السوداء، تفتح دلاليا على كم هائل من التأثيرات الفكرية والسياسية والاجتماعية. تكشف شخصية "الخضر" عمق المأساة الوطنية ومدى حدة الصراع الفكري والديني والسياسي، هذا الصراع الذي يتخذ من الهوية محورا للتناحر والعنف. وفي خضم هذا الصراع العثي يمضي "الخضر" الانتهازي حالما بتحقيق مصالحه الخاصة.

الكلمات المفتاحية: ياسمينه صالح، الخضر، الصورة الفنية، الهوية الوطنية، الصراع، الانتهازي.

Abstract:

The current study, which is based on a theme running throughout the novel entitled «Lakhdar» written by the novelist Yasmina Saleh, focuses highly on the own image of the hero «Lakhdar» for the reason that he is the leading character. Besides, it takes into consideration the quest for identity and its several vagaries due to certain conflicts and dissidences resulting from the loss of self -worth and the eeriness inside the homeland compounded by the undermining of the human dimension at a time when the values are useless because of the tenfold increase of futilities. A time when the individual is only interested in attaining his own personal interest whatever it takes. And through this narrative view, the novel «Lakhdar» is perceived as an artistic image, semantically amended, which highlights a number of social, religious and intellectual realities. Moreover, the character of Lakhdar reveals the depth of the national tragedy and the unheard-of political, religious and intellectual conflict. A conflict which makes of the identity the centre of rivalries and violences. And within this conflict, Lakhdar chases his dream of achieving his own interests.

* أ.د./ باية غيبوب/د/أمنة عشاب

Keywords: Yasmina Saleh, Lakhdar; Artistic image; National Identity; Conflict, Opportunist.

تقديم:

تجبرنا أسئلتنا النقدية أحيانا أن نعلم إلى السياقات الخارجية وإلى كل المناصات وحتى تلك النصوص الموازية Paratextes قصد فهم المنجز السردى الروائى وفك ملابسات انجازه، وفرض بعض مغالقه الدلالية المرمزة، وشفرات لغة الإغماض والتعمية التي تمثل ممرات دلالية ومعرفية توصل القارئ بما هو خارج المتن المثبت كتابة. فكثيرا ما يعول على خارج النص وتخومه وحواشيه وهوامشه التي تزود القارئ وتمده بتلك المعاني التي يأبى المتن التصريح بها وفضح كنهها. يحدث ذلك في تعاملنا مع جزئيات المسرود وأيضا مع المحاور الدلالية المهيمنة المركزية التي تعد أهم الدعامات الخطابية التي يتمحور حولها المقول السردى وتشيد حولها المفاهيم والأفكار.

كل كتابة سردية تسعى إلى تقديم المعنى القصدي ضمن صورة فنية أساسها التكويني اللغة الساردة وهي تشتغل لتحرير المعنى وبناء حزم الدلالات التي هي محور الخطاب الروائى. وكلما كان تدبر الصورة محكما كلما تأكد فنيا وإبداعيا قدرة الروائى على صنع نص سردي متفرد متميز، وهذا الذي نؤكد عليه هنا في هذا المكان النصي، وهوما وقفنا عليه في روايات الكاتبة الجزائرية "ياسميينة صالح" وخاصة في روايتها "لخضر" التي نراها قد أبدعت بشكل لافت في تصنيع الصور الفنية وتشكيل بنياتها اللسانية، صور سردية تقول الهوية وترسم عمقها النفسي والذاتي والوطني بل وحتى الإنساني متخذة من الشخصية الرئيسية، شخصية لخضر قالباً فنيا لكل شخصية انتهائية، والتي تمثل محور الحكى ودائرة المسرود. ومن هذا التصور يتولد سؤال الإشكالية؛ فما هي مستويات جماليات الصور السردية التي رسمت بها هوية شخصية لخضر الانتهازية، الشخصية القالب؟ وما هي المفارقة الساخرة بين صورتى "لخضر"؛ لخضر الهباء ولخضر السيد؟.

1- انفتاح الصورة الفوتوغرافية على الصورة الفنية:

رسمت الروائية "ياسميينة صالح" هوية لخضر انطلاقا من الصورة الفوتوغرافية المثبتة في ملف إداري، حين كان الجنيرال يتأمل صورة ابنه الضابط الشاب بين يديه. يمثل هذا الحدث عتبة يستشرف القارئ من خلالها أفق التوقع لما ستصير إليه شخصية "لخضر"، شخصية مثقلة بالخييات والضياع والهباء، لكن لن تتكشف حقيقة صورة هوية "لخضر" إلا بتضافر تلك الظهورات والتأثيرات المتراصة فيما بينها، المشتغلة لسانيا وسرديا على رصد التحولات الدلالية اللسانية، وقد نبهت الساردة الضمنية "ياسميينة صالح" منذ البداية متسائلة كيف يمكن لحكاية أن تبدأ أو تنتهي بصورة؟ ثم تضيف سؤالا أكثر استفزازا يفتح أفق التوقع ويزيد استشراف صورة الهوية غموضا

وتعقيدا : "لا يدري لكنه يعي أن الحكاية بدأت قبل أكثر من ثلاثين سنة خلت"¹. بهذه العتبة يتلمس المنجز السردي "لخضر" بداية خيوط شخصية "لخضر" المتضافرة الشديدة التعقيد، "إنه" "لخضر" الشاب/الشخصية النكرة/التعس/الجائع/الأبله/الضائع/ تلك هي الخصائص المتضافرة التي تحدد تقاسيم ملامح "لخضر". من هذا التشاكل المتناقض يمكننا تحيّل هوية "لخضر" الكاريكاتورية الجامعة بين الشفقة والسخرية.

2- الاغتراب الذاتي والوطني:

يشغل منجز "لخضر" على تيمة الهوية وتشظيها، والاغتراب الذاتي والوطني وحتى الإنساني في زمن ضاع فيه القصد واقتُقد فيه السبيل السوي، زمن أضحى فيه هم الفرد هو تحقيق المصلحة الخاصة مهما كلفه ذلك، حتى ولو ضحى بأعلى ما يملك وليكن الشرف أو المروءة، المهم الوصول إلى نقطة الضوء والخروج من النفق المظلم، أو دائرة التيه؛ دائرة رحى المأساة الوطنية الجزائرية حيث صار المواطن الجزائري غريبا في نفسه وفي وطنه الذي تحول إلى آلة جهنمية تطحن بلا رحمة كل من وقع بين فكئها.

رواية "لخضر" تقدم شخصية لخضر البائس/الضائع/الأبله/الجائع، الباحث عن منفذ نور يوصله إلى مبتغاه، إنها شخصية تسعى ملء الفراغ الذي أحدثته التغريب القصري لكل شريف ووطني. كان "لخضر" يرغب في التحرر من عقدة البداية، وأن يختار لنفسه وجهة مغايرة لتلك الوجهة التي أرغمتها الظروف على السير فيها.

وما الاغتراب إن لم يكن سوى هذا الضياع والهباء والتهيه؟ إنه "التفكك الوجودي للإنسان المعاصر بوصفه حالة سيكولوجية، أي الشعور بيقينية الاغتراب بداخله"². ولن يُخرج "لخضر"/الهباء من اغترابه وضياعه سوى معجزة ما. يقول المتن الروائي مستشرفا آفاق النفق الذي يمضي فيه "لخضر" وقد تخلص نهائيا من بؤسه وهبائه وصارت له هوية ومكانة: "عام من العمل وصارت له بذلته الخضراء الرسمية لبسها بإحساس غريب يشبه إحساس حية تغير جلدها إلى الأبد... وحدها البذلة من حولت فشله إلى نجاح كبير في أعين الناس.. أصبح مخيفا ومهما.."³.

3- الهوية المزيفة:

من جمالية صورة الهوية المزيفة هذا التحول والانتقال في رسم دلالة هوية "لخضر"، تحول تحقق بفضل تقنية التغريب أي إضفاء غرابة على المألوف، أو نزع الألفة عنه. ومن ثمة جعل الأشياء والأشكال تبدو غريبة بسبب إسقاط الألفة عنها لنراها بطريقة مغايرة، وهذه مهمة الفن، بل كل الفنون. فهي تساعدنا على إعادة اكتشاف الأشياء التي نعرفها ولكن نلقاها بشكل مغاير بعد أن جردها الفنان من خصائصها المألوفة كاسبها إياها غرابة، هذه الغرابة هي ذاتها فعل الإبداع والخلق، وهي هذا التحول الحاصل في شخصية لخضر، وقد رصدت له الروائية

"ياسمينة صالح" أدق الوحدات المعجمية وهي: بذلته الخضراء الرسمية/لبسها بإحساس غريب/إحساس حية تغير جلدها إلى الأبد/حولت فشله إلى نجاح/ أصبح مخيفا ومهما...

بالقراءة المتفحصية لهذا المقطع السردى يتضح جليا البعد السيميائي لشخصية "الخضر" ولما هي سائرة إليه، حين تكتسب هوية الأفعى التي تعني الغدر والسُّم كما تعني اللدغ الذي لاشفاء منه، والذي يعني في التأويل الأخير الموت. ومن وجهة أخراة أن لخضر صارت له هوية الديكتاتور الذي هو في حقيقته شخصية بائسة وهباء وضياح يختفي داخل بذلة الحاكم القاهر فوق رعيته. وهل كان الديكتاتور سوى فزاعة محشوة بالتبن ترهب المقهورين الضعفاء؟ من هذا ظل لخضر يسعى وبكل السبل للتخلص من هوية الفقير البائس واكتساب هوية السيد السائد ولأنّ البؤس مرتبط بالفقراء دون غيرهم.

وفي زمن الموت والخوف، زمن لخضر الهباء، الانتهازي، الدموي، تتعمق تعاسة البسطاء ويزداد فقرهم تجذرا، الجميع متساوون كأسنان المشط أمام الموت المتربص بأي مواطن بسيط، ربما في تلك الظروف الدموية تكون البساطة تهمّة كافية للقتل. يكفي أن تكون بسيطا معدوما لتموت ببساطة ويُسر ولن يُفاجئ موتك أحدا على الإطلاق، فقط كان من اللازم أن تموت موتك الأخيرة. لقد تكررت لازمة لعنة الموت واليتم في أكثر من عمل روائي لياسمينة صالح "نحن أيتام هذا الزمن الكئيب". ياسمينة صالح "تكتب الموت وتسرده وتحكيه وكأنه شخصية وطنية لها حضورها ولها سطوتها. وهي تعي أنها تكتب عن الموت من داخل الموت، الوطن الذي صار مرادفا للموت والانكسارات والخيبات المتلاحقة وطن يأكل مبدعيه بكل الأشكال ومع ذلك تصر على لعنة الكتابة وتعتبر أن البقاء داخل الوطن جزء من تلك اللعنة التي تشبه القدر والتي لايمكن التخلص منها إلا بالموت..."⁴.

4- "الخضر" الشخصية القالب:

وبهذا تكون رواية "الخضر" صورة معدلة فنيا للواقع الجزائري المعيش أيام المحنة، معدلة بعد أن جُرّدت من ألفيتها. وما نتلقاه على مستوى المنجز السردى "الخضر" ليس بالضرورة ذلك الواقع الذي نعيشه، بل تساعدنا الرواية على إعادة اكتشاف واقعنا المزرى التعس الذي يعجّ بالموت، والموت فقط. يرى "بيرس لوبوك" في الربط بين فن الرواية والحياة: "...أنّ الرواية صورة للحياة، وألفة الحياة ومعرفتنا الجيدة بها هما اللتان تجعلنا نستعمل ذوقنا لنحكم على الرواية فيما إذا كانت صادقة مفعمة بالحياة، مقنعة كما هي في الواقع"⁵.

إلا أنّ في فن الرواية يسعى الروائي إلى تحقيق واقع مغاير ومواز لما نعيشه، واقع معدل جماليا وحتى فكريا بحيث تتمّ عملية التلقي لدى القارئ مصحوبة بقيمة النص الجمالية الفنية، "إذ أنّ التعبير الأدبي يحتاج باستمرار إلى تقنيات وأساليب من أجل صوغ جمالي ورؤية معبرة تتقاطع في نسجها وأنساق الذاتي واللاشعور

والتاريخي...⁶. ومن أهم تقنيات بناء الصورة الفنية هو نزع مألوفيتها التي تمثل لدى القارئ المعرفة المسبقة عن الشيء الموصوف، وبهذا تكون صورة "لخضر" بمحمولها الدلالي وهويتها صورة قالب جاهز يمكن أن نرى فيها أية شخصية وطنية انتهازية يدفعها البؤس والضعينة والفقر والغباء إلى البحث عن موطئ قدم خارج الزحام، خارج دائرة الموت.

يرسم السارد/الساردة الفعلية "ياسمينه صالح" صورة أخرى تقع في منتهى امتداد الحكاية وفي أقاصي الرواية ولا تقرأ إلا استشرافاً وتدبراً وفي نفس الوقت تفتح آفاق شعرية المحكي. يتذهن "لخضر/الهباء" نفسه حالماً وقد صار بطلاً غامضاً، كان مولعاً بمشاهدة الأفلام البوليسية، والأفلام الجاسوسية التي تشعره أن بإمكانه أن يصبح بطلاً خارقاً... "كان يرى نفسه جاسوساً لحساب شبكة ما، مغامراً وقادراً على تخطي الصعاب، ليلتقي في النهاية بحبيبة جميلة ودافئة تقول له: أحبك.. كما تقولها البطلة للبطل الوسيم مفتول العضلات.. لطالما أنقذه خياله من الكآبة والقهر اللذين يطاردانه كل يوم ولكنه يصعق حين تظهر ملامحه على زجاج واجهة ما، فينكشف أنه لن يكون بطلاً، وألاً فتاة ستقول له أحبك، لأنه لا يثير سوى الشفقة كمتسول يطلب الحنان بدل الخبز... هل كان ممنوعاً من الحب كعملة ممنوعة من الصرف؟"⁷. يفضي هذا التعبير الأسلوبي في تشكيل الصورة إلى الالتفاف سردياً على واقع لخضر/الهباء، واقع يدفع هذه الشخصية التلسة إلى صناعة واقع مغاير على سبيل التوهم والحلم، أن يتكرر تخيلاً صورة له استشرافياً تكون ملجأً له ومنجاة مما هو فيه من بؤس وشقاء، باحثاً عن منفذ ضوء يوصله كما أوصل كل منتهر إلى واقع لن يصل إليه إلا بالدوس على رقاب الضعفاء المقهورين. في زمن الحروب والمآسي يمكن تحقيق الأحلام المستحيلة وتأسيس المشاريع التي كانت وهماً، مقابل ارتكاب الفظائع وإراقة دم الأبرياء المسحوقين أصلاً.

تحاول الروائية "ياسمينه صالح" وهي تكتب صورة لخضر/الهباء وتشكلها تجسيد نموذج لشخصية منتقاة بعناية فائقة من وسط "الغاشي"، الغاشي التي تعني بالعامية الجزائرية المواطن البسيط. برؤية التشوفية والتي هي قراءة استشرافية حاملة يحاول لخضر/الهباء إشباع روحه الظمأى إلى السيادة والجاه، ولو عن طريق الحلم كتعويض عن فداحة الواقع المزري، مع إدراكه ويقينه أنه "عملة ممنوعة من الصرف"، فقط عليه أن يبادر إلى وضع خطوة خارج الزحام، خارج دائرة الدم والعنف الأعمى. من هذا المنظور السردى يستطيع القارئ استجلاء صورة لخضر المتخيّلة، ومن ثمة معرفة أغوار الحلم الذي يسكنه والذي يدفعه لإيجاد منفذ وموقع قدم وسط الفئة الغامضة. وحتى يتحقق له ذلك كان عليه لزاماً أن يسير مغمض العينين حالماً تدفعه نشوة لاتقاوم لتحقيق هوية ليست له بالتأكيد، ولكن يكفيه أن تكون قناعاً له يخفي ملامحه التلسة، وأن يظهر في شكل فزاعة ترعب البسطاء من

المواطنين. ففي أزمنة الموت المبالغ ودوامه الدم تصبح الأهداف والغايات كلها مشاريع قابلة للتحقيق، وقد تجرد الانتهازيون من جميع الاعتبارات الأخلاقية، بل يصبح مجرد التفكير في القيم النبيلة عبثاً لا طائل من ورائه.

إنّ القراءة الواعية لرواية "الخضر" تكشف عمق المأساة الوطنية ومدى حدة الصراع الفكري والديني والسياسي، هذا الصراع الذي يتخذ من الهوية محورا للتناحر والعنف. وسط هذا الصراع العنفي يمضي الانتهازي حالماً بتحقيق مصالحه الخاصة غير آبه للمصير الغامض الذي يترصده ويترصده المجتمع، فقط يمضي مصراً على الوصول ولا يهمه تكلفة الوصول. بهذا التفسير ترسم الرواية "ياسميينة صالح" صورة شخصية "الخضر" وقد أفرغت هذه الشخصية نهائياً من أية قيمة وطنية أو حتى إنسانية سوية، شخصية تنمو بالتدرج وبرتابة مطردة من عتبات النص الروائي إلى أقاصيه.

5- "الخضر" من الهباء إلى السيد:

شخصية حددت حركتها بأسلوب سردي مدبّر ومحكم الحبكة، من انتعال حذاء كثير الثقوب وصولاً إلى مرحلة راقية بدا فيها "الخضر" وقد انتعل حذاء أسود، وما بين الحذاءين قصة كاملة تحكي قصة "الخضر" الحالم بالسلطة والجاه والنفوذ. وما بين الحذاءين تتكاثر وتكاثف عنقودية الدلالات المتناسلة المتراصلة والمتضافرة ومعها تبدو صورة "الخضر" الهباء والغباء والجائع تتراجع وتحل محلها صورة "الخضر" السيد.

بهذا التدبّر الفني الجمالي الذي يجلي صورة "الخضر" تكون الروائية ياسميينة صالح قد شحنت صورة لخضر الفنية بكم لساني دلالي ورموز مثقلة بدلالات فكرية واجتماعية وحتى أمنية، يشير المتن الروائي إليها ولا يقولها صراحة. وما تشير إليه تأنيثات الصورة ومكوناتها اللسانية وغير اللسانية والذي يقع خارج الكتلة اللسانية المسجلة والمثبتة أكبر وأغزر معنى وأكثر غنى وثراء. ولن يتحقق الوصول إلى ماهية صورة "الخضر" إلا بالقراءة الانزياحية وإنتاج معنى المعنى الذي هو الغاية والقصد من كل كتابة فنية إبداعية راقية.

لاشك في أنّ الصورة الفنية في منجز "الخضر" السردية كانت ياسميينة صالح تسعى من خلال اشتغالها وبما شحنتها من تأنيثات ومكونات سردية لفضح طبيعة تلك الاشباح الدموية، التي خرجت بائسة وغامضة من الهامش الغامض التي تحيط بالواقع اليومي المعيش، يمضي "الخضر" حالماً بالسلطة والجاه، مستعداً لأحداث أكبر قدر من الخراب والدمار وسفك دماء الأبرياء البسطاء، لالسبب معقول سوى تقمص هوية المسؤول صاحب النفوذ والجاه الغامض، مع علمه هو أنه لا يعدو كونه فزاعة من قش تبعث الرعب في نفوس الضعفاء.

من جماليات اشتغال الصورة الفنية في رواية "الخضر"؛ صورة الحذاء المهترئ الكثير الثقوب، والذي لا يقرأ إلا من منظور سيميائي، دال على عمق التعاسة والهباء. كما أن صورة الحذاء المثقوب ورد سردياً أقوى من أية لغة

يمكنها أن تعبر عن عمق الضياع والبؤس الذي خرج منه "لخضر" ليتبوأ مكانة الحاكم القاهر فوق عبيده من الطبقة المسحوقة، إنه "الغاشي" المقهور بالوراثة المجهول على الخوف من المجهول، ومن الغد الغامض الذي قد لا يعيشه "لخضر" النكرة الذي يرى نفسه عملة ممنوعة من الصرف كما تقول الروائية ياسمينة صالح، منبذ ومحروم حتى من أبسط حق يمكن أن يشعره أنه كباقي المواطنين من حقه أن يعيش كريما، وأن يحب وأن يتزوج ويكون له حضور اجتماعي يشعره بدفع الحياة وبيع بعض ملذاتها. ولما سأله رئيس العمال إذا كان يفكر في الزواج، فكان جوابه:

أنظر إلى شكلي.. هل أملك شكل شخص يفكر في الزواج؟ قالها وهو يشير إلى الثقوب الكثيرة في حذائه⁸.
وفي موقع سردي آخر يصبح الحذاء رمزا قويا له دلالاته الاجتماعية وعنصر أساسيا في تكوين شخصية "لخضر"، بل إنه يرى الحذاء عاملا حاسما في تغيير شخصيته البائسة، بل سيخفي مظهره البائس وإلى الأبد. يقول "لخضر" لـ"نجاة" وخيبة تعصر قلبه بعد أخذ والده راتبه خفية:

كنت أحلم بشراء حذاء وقميص وبنطلون جديد.. فكرت أيضا أن أشتري لك هدية، ويحضر الحذاء الحلم مرة أخرى وفي سياق مشابه: أنا لن أقضي حياتي بهذا الحذاء وهذا القميص وهذا البنطلون.. سأشتري ثيابا جديدة⁹

بهذا الطرح تغدو الصور الفنية لشخصية "لخضر" المتلاحقة على طول النص الروائي وعلى اختلاف صيغها التركيبية محركا قويا للفعل السردي وطاقاة دينامية لتحريك المحكي وتحدد الخطاب، وتنوعا للأساليب والصيغ التعبيرية، ومع تلاحق الصور الفنية وشعرية اشتغالها تتضح آفاق المحكي استشرافيا، كما تنكشف إرادة وإصرار لخضر على الوصول إلى تلك النقطة المضئية في آخر نفق تعاسته وبؤسه الوراثي، وهكذا يتكرر حضور الحذاء كلازمة فنية تؤطر المحكي وتوجه دفعة المسرود صوب تلك النقطة المضئية والتي يجهل لخضر تماما كيفية الوصول إليها، ومع ذلك يصّر على المضىّ قدما يدفعه السؤال المركزي الذي يسكنه حدّ الهديان، كيف يتخلص من إيهاش شخصيته البائسة؟

تنفتح الصورة الفنية هنا مع لازمة حضور الحذاء لتعمق أبعاد الحلم الذي يسكن "لخضر" وكأني به يرى الحذاء الكثير الثقوب هو العائق الذي يمنع خطوه من التقدم صوب نقطة الضوء التي سيسود فيها ويكون له شأن وجاه. بهذا يبدو "لخضر" مصرا على تغيير مظهره بل وحتى سلخ جلده، فقط ليتخلص نهائيا من مظهره المزري. "سأشتري ثيابا جديدة". يقول ذلك بإصرار وعناد، وهو لا يعلم أنه في زمن قادم سيكون له بذلة خضراء تبعث في نفس البسطاء الرعب، بل من يجرؤ يومها على أن يرفع عينيه في وجهه؟ إنه الضابط الذي سترتبط شخصيته بالخوف

والرهبة، لا لسبب فقط لأنه شخصية هامة واستثنائية يجب أن تُرهب البسطاء وعلى البسطاء أن يتحاشوا النظر إليها، أليس هذا كافياً لتوضيح عمق ذلك الحلم الذي يسكنه حدّ الهذيان؟

ومع ذلك أيضاً يدرك "الخضر"/الهباء أنه لا يعدو كونه كائناً في صورة وحش بائس وربما وديع وربما مسالم إلى حدّ البلادة والبله. يقول المتن الروائي:

"كان يشعر أنه الوحش في حكاية "الجميلة والوحش" التي شاهدها في السينما أكثر من مرة. ذلك الوحش استطاع أن يتحول إلى عاشق لأنّ حبيبته جميلة اختارت أن تحبه دون أن تحاسبه على شكله أو مظهره، وحدها لم تر فيه وحشاً، رأت فيه إنساناً دافئاً وصادقاً.. كان يعرف أن النهاية جميلة، يتخيلها دائماً بشكل مختلف فيحب القصة أكثر من المرة السابقة. ألم يكن يشبه ذلك الوحش الحزين والوحيد، ولكن نجاة حررته من السحر القديم الذي كان يجبره على الخضوع للعتمة. كان نكرة في عيني أبيه وزوجة أبيه وإخوته، وبائساً في نظر الآخرين، ولكنه حقيقياً نابضاً بالحياة في عينيها"¹⁰.

يسعى استدعاء النص الروائي للنص السينمائي قصة "الجميلة والوحش" إلى إقامة تراسل جمالي دلالي بين الفنانين، وإلى تعميق الخطاب السردى، وهو ضرب من الالتفاف الذكي على الشخصية المحورية "الخضر" قصد تعميق صفات البؤس والهباء، فاستدعاء شخصية الوحش المقرونة بشخصية "الخضر" تفضح عمق مشاعره ومكبواته التي تنخر نفسيته وتشعره برهبة مواجهة الواقع تماماً كما يُشعر الضوء الوحش بالرهبة والفزع الشديد من أي بصيص ضوء يواجهه. وكما كانت الجميلة في القصة "الجميلة والوحش" تشبه الضوء الذي ينير ملامح الوحش القبيحة وكانت تعويضاً له عن ذلك الضوء الذي يربعه، كذلك كانت "نجاة" منجاة "للخضر" عوضته عن ذلك الواقع الذي كان يخشى مواجهته، خوفه من مواجهة الآخرين، كيف يواجه الآخرين بخذاء كثير الثقوب؟. ومع ذلك تصرّ الراوية على أن يبقى "الخضر" بائساً منبوذاً.

وبهذا التوظيف لفن السينما واستدعاء قصة "الجميلة والوحش" يتضح مدى أهمية استثمار الفنون في فن الرواية بصفتها فناً يتسم بقابلية التعالق واستدعاء باقي الفنون، بل تعد الرواية بحق فن الفنون كلها توظيفاً واستلهاماً، بل وحتى إعادة إنتاج هذه الفنون ودمجها في الفعل السردى وإعادة حكيها من منظور سردي، مضمّنة عليها خصائص المسرود. وقد تجرّدها من بعض خصائصها الفنية، محتفظة بأهم الخصائص التي تُبقي على نواة الفن والتي هي في الوقت ذاته تمثل شخصيته وهويته الفنية مع ما يحدثه هذا التعالق بين الفنون من تصادم ومنازعات إجناسية. فلكل فن بلاغته ولكل فن شخصيته القارة التي تأبى التغير والتبدل.

على الرغم من أن الكاتبة ياسمينه صالح تعول بشكل أساسي على رسم صورة "الخضر" باللفظ الدال، إلا أنها تعتمد إلى الصورة الجاهزة المشحونة سلفا بدلالات أقوى وأعمق وأكثر أثرا في نفسية المتلقي تعويضا منها ربما لعجز اللغة الساردة الواصفة على تحقيق المعنى القصدي الذي تريد إيصاله للمتلقي. فقد ألفينا الروائية ياسمينه صالح تكثف من التعبير عن صورة "الخضر" البائسة، حيث تكررت مرّات، إلا أنها ربما ظلت قاصرة عن تحقيق المعنى المنشود رغم تنوعها للأساليب والتراكيب التعبيرية مثل:

عليه أن يظلّ حارسا بائسا ليثبت أنه ليس بائسا/ لن يتغير طالما سيظل بائسا/ هل يمكن أن يرفع حامل بائس عينيه في وجه وزير بحجة أنه حر¹¹.

ومع ذلك نحسب أننا وقفنا بشكل موضوعي على الدلالة المركزية للمسرد، وهو المعنى الذي حام حوله النص وأشار إليه ولم يصرح به، مانحاً العلامات اللسانية والرموز المتضمنة في ثنايا المنجز أن تتكاثر متضافرة لتساعد القارئ على الوصول إلى المعنى المسكوت عنه سرديا. وما العناصر اللسانية العلامية منها والرمزية المشفرة إلا امتداد لحلم "الخضر" ما بين حذائه الكثير الثقوب وحذائه الأسود اللّماع، ما بين صورة البائس وصورة السيّد فقط يمضي حالما بالسيّادة والجاه، وما بين هنا وهناك مسافة حلم يسكنه حدّ الهذيان، فقط هنا وجع الواقع البائس الذي يسكنه أيضا حد اليأس، بؤسه الذي يولد فيه صراعا نفسيا عميقا يتحول مع كل خطوة يخطوها صوب حلمه، الى وجع قاتل وخيبة تنهش قلبه، ومع ذلك يمضي حالما بمجهول جميل يخلصه من كل أوجاعه وضياعه، يمضي وفي نفسه المنكسرة رنين كلمة "السيّد" التي تعمق فيه وقعا لذيدا ونشوة مخدرة تسري في كل أنحائه، فيرى نفسه قد وصل بالفعل إلى نقطة الحلم، إلى منصة السيّادة وفي هذا سياق يقول المتن:

"لفظة يا سيّدي: مفتاح سرّ العظمة والفخر

اقترّب النادل منه بابتسامة متقنة وسأله:

هل ترغب في مشروب معين يا سيّدي؟. عصير.. !

- حالا.. !

كان يجد في تلك الأماكن شيئا يشعره بقيمته إزاء ذاته.. يدفع النقود لأجل أن يسمع كلمة سيّدي .. ! يحس أنه ملك نفسه..¹²

ونظر إلى النادل بالذهول نفسه الذي نظر به إلى بائع الأحذية، كان النادل ينتظر الردّ، وكان لخضر يشعر لأول مرة أنه أصبح سيّدا، وأنه سيكون محترما لدقائق أخرى، فكر في الماضي القريب.. شعر بخنين غريب إلى وجهه مازال يعتقد أنه الأجهل في الكون.. نجاة..! تساءل بحزن: هل كانت ستعرفني لو رأني الآن¹³؟

يسعى هذا المقطع السردى إلى تأطير صورة "لخضر" وشحنها بطاقة بلاغية إبلاغية، ومن ثمة الاشتغال على تأجيح تيمة "سيدي" بصفتها موضوعة محورية تجسد فيض الحلم، حلم الوصول إلى نقطة الضوء والتخلص نهائياً من صورة البؤس والتعاسة والضياح، وبذلك تكون لفظة "سيدي" بمثابة إيهاب السيادة/الهوية، التي طالما ظلت تسكن نفسه البائسة. هذا على مستوى الخطاب واشتغال المحكي، أما على المستوى البلاغي للصورة فإن المقطع السردى الذي استدعيناه بصفته شاهداً، فإنه يستشرف بقراءة استدلالية تشوفية مستقبل المحكي الذي يقع في مستقبل النص الروائي، ويقدم صورة "لخضر" التي سيكونها هناك، وقد صار سيّداً يهابه الآخرون ويتجنب البسطاء التعساء حتى النظر إلى بذلته العسكرية الخضراء أو التحديق في حذائه الأسود، أو حتى التحديق في عينيه التي تراقب أدنى حركة، بل ويمكنها التعرف بسرعة على ما توسوس به نفوس خصومه الوهميين. إنه "لخضر" البائس الذي انتفض من رماد بؤسه وضياحه وقد تحققت له هوية السيّد صاحب النفوذ والشخصية الغامضة.

خاتمة:

تكمن بلاغة الصور الفنية في مجمل الشواهد السردية التي أوردناها، في قوة اللغة وتشعرها وفي فريدة الأسلوب وأدبية المحكي، إذ أسست الروائية ياسمين صالح روايتها "لخضر" على ثلاثة محاور تتراسل فيما بينها وتبقى كل الظهورات الأخرى تدور في فلكها وهي: الحذاء المهترئ والحذاء الأسود اللّماع والسيادة. يشير هذا الجمع بين المتناقضات إلى دور الإبداع الأدبي في خلق تناغم جمالي بين كل الظهورات والتأثيرات المتضافرة في المتن الروائي. إن دور الفن عموماً والرواية بالذات هو أن تعيد إبداع الواقع وتشكيله فنياً، ومن ثمة جعل القارئ يعيد اكتشاف الأشياء التي يعرفها من وجهة فنية، وحتى يتم ذلك على الروائي الفنان أن يجرد العناصر المحكية المسرودة من ألفيتها مع البقاء على أدق خصائصها التي تمثل هوية الشيء وشخصيته. وهكذا تقدم الرواية الأشياء المسرودة ليس كما نعرفها بل كما يمكنها أن تكون ولن تكون أبداً، لأنها ستظل تشكل عالمها المتخيل فحسب.

الهوامش:

¹ - ياسمينة صالح: لخضر، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2010.

² - جيمس هيجنز. الاتجاهات الجديدة في رواية أمريكا اللاتينية. مجلة فصول. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. مجلد 12. ص: 117.

³ - ياسمينة صالح: لخضر، ص: 16.

⁴ - حازم إلياس: قراءة أولية في رواية وطن من زجاج لياسمينة صالح. www.m.alhewar.org.

⁵ - ديفيد لودج: الفن والرواية. تر. ماهر البطوطي، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2002. ص: 20.

⁶ - شعيب حليفي: مرايا التأويل. تفكير في كفايات تجاور الضوء والعممة، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، 2010، ص: 35.

⁷ - ياسمينة صالح: رواية لخضر، ص: 46.

⁸ - ينظر ياسمينة صالح: رواية لخضر، ص: 69.

⁹ - ينظر ياسمينه صالح: رواية لخضر، ص: 74 / 77 .

¹⁰ - ياسمينه صالح: رواية لخضر، ص: 79.

¹¹ - ينظر ياسمينه صالح: رواية لخضر، ص: 132/137/142.

¹² - ياسمينه صالح: رواية لخضر، ص: 100.

¹³ - ياسمينه صالح: رواية لخضر، ص: 100.

قائمة المراجع:

- (1) جيمس هيجنز، الاتجاهات الجديدة في رواية أمريكا اللاتينية. مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مجلد 12.
- (2) حازم إلياس: قراءة أولية في رواية وطن من زجاج لياسمينه صالح. www.m.alhewar.org.
- (3) ديفيد لودج: الفن والرواية، تر. ماهر البطوطي، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2002.
- (4) شعيب حليفي: مرايا التأويل تفكير في كينيفيات تجاور الضوء والعتمة، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، 2010.
- (5) ياسمينه صالح لخضر، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2010.